حقوق الإنسان للأطفال

الخفّاش الصّغير

تأليف :
محمد الغزي

رسوم :
أحمد الصوابني

المعهد العربي لحقوق الإنسان
منظمّة العفو الدولية – فرع تونس

1999

نَظَرَ الخُفَّاشُ الصَّغيرُ حَوْلَهُ وَصَاحَ فِي فَرَحٍ :

– آهِ مَـا أَجْمَـلَ الأَرْضَ

لَمْ يَمْـضِ عَلَى مِيـلاَدِهِ غَيْرُ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، لَكِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْـهِ، وَنَفَـضَ جَنَاحَيْـهِ وَخَطَا خُطُوَاتِـهِ الأُولَى :

– هَـذِهِ الأَرْضُ إِذَنْ !! زُهُـورٌ وَفَرَاشَاتٌ وَبَجَعٌ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارٌ، آهْ مَا أَسْعَدَنِي بِوِلاَدَتِي فَوْقَ هَـذَا الكَوْكَـبِ الجَمِيلِ، أُرِيـدُ أَنْ أَطِيرَ الآنَ حَتَّى أَكْتَشِـفَ كُـلَّ أَقَالِيمِـهِ وَمَمَالِكِـهِ.

نَفَـضَ الخُفَّاشُ جَنَاحَيْهِ ثَانِيَـةً ثُمَّ حَاوَلَ أَنْ يَطِيرَ لَكِنَّهُ سُرْعَـانَ مَا سَقَـطَ فَصَـاحَ :

– أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ كَبِيرًا، مَا أَتْعَسَ الطُّيُورَ حِينَ تَكُـونُ صَغِيـرَةً.

خَرَجَـتْ أُمُّ الخُفَّـاشِ مِنَ الْمَغَـارَةِ وَ ٱحْتَضَنَتْ ابْنَهَا ٱلصَّغِيـرَ وَهَمَسَـتْ فِي أُذُنِـهِ :

– كَيْـفَ تَجْـرُؤُ عَلَى الخُـرُوجِ وَالشَّمْـسُ لَمْ تَغِـبْ بَعْـدُ ؟

رَفَعَ الخُفَّاشُ جَنَاحَيْهِ وَسَأَلَ :

– وَلَكِـنْ مَتَى يَكُـونُ الخُـرُوجُ يَا أُمَّـاهُ ؟

أَجَابَـتْ الأُمُّ :

– نَحْـنُ لاَ نَخْـرُجُ إِلاَّ لَيْـلاً.

ضَحِكَ الخُفَّاشُ الصَّغِيرُ وَقَالَ :

– وَكَيْفَ لَنَا أَنْ نَرَى الزُّهُورَ وَالبَجَعَاتِ وَالأَنْهَارَ ؟

حَمَلَتِ الأُمُّ طِفْلَهَا وَهْيَ تُرَدِّدُ :

– حِينَ تَكْبُرُ يَا وَلَدِي سَتَعْلَمُ لِمَاذَا نُؤْثِرُ الخُرُوجَ لَيْلاً.

لَمْ يَفْهَمِ الخُفَّاشُ كَلاَمَ أُمِّهِ لَكِنَّهُ قَالَ :

– لَنْ أَخْرُجَ إِلاَّ حِينَ تُشْرِقُ الشَّمْسُ !! أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ الأَرْضَ وَالنَّاسَ وَالأَنْهَارَ وَالبِحَارَ.

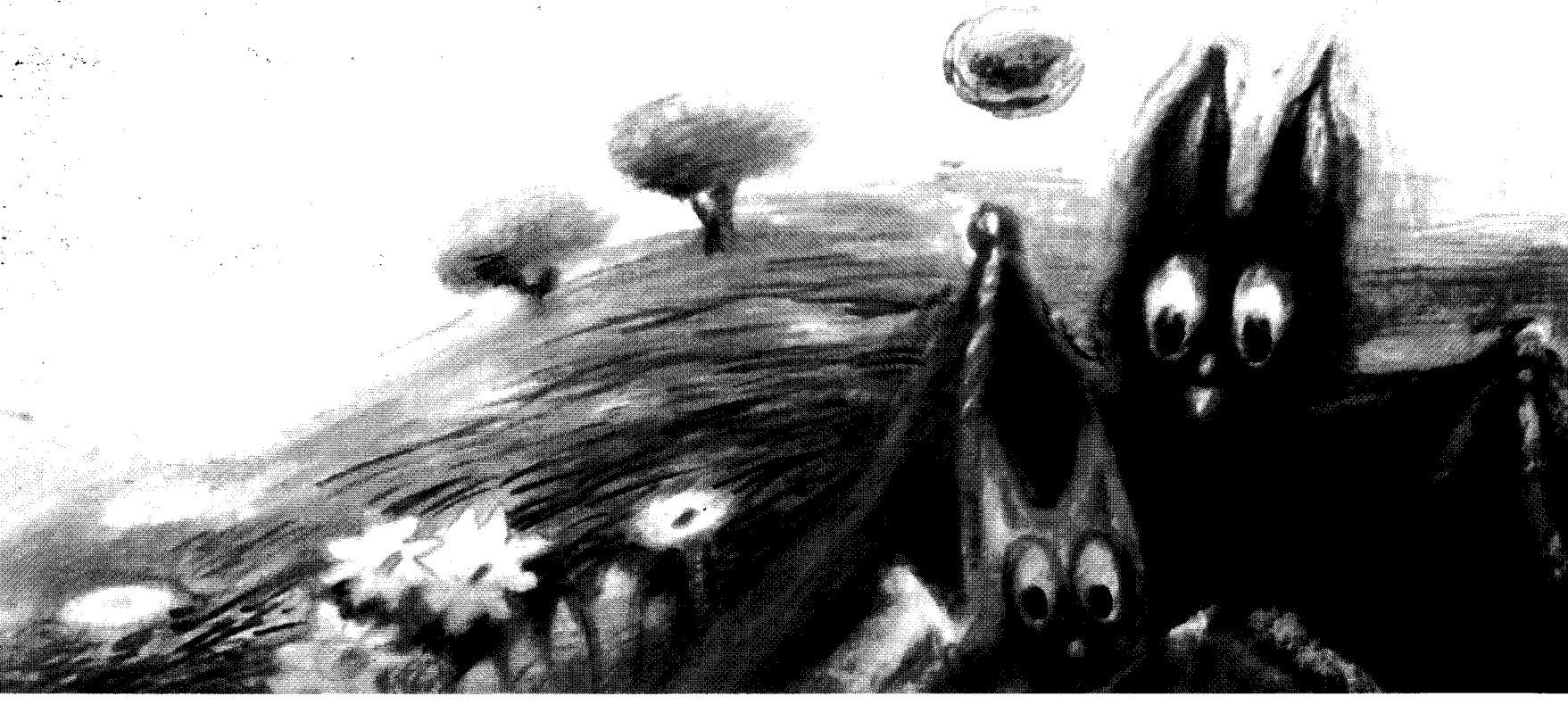

لَمْ تَمْضِ عَلَى مِيلادِ الخُفَّاشِ غَيْرُ أَسَابِيعَ قَلِيلَةٍ لَكِنَّهُ اسْتَطَاعَ - مَعَ ذَلِكَ - أَنْ يُرْسِلَ جَنَاحَيْهِ فِي الفَضَاءِ وَيَطِيرَ. لَمْ يَبْتَعِدْ فِي اليَوْمِ الأَوَّلِ، عَنْ مَغَارَةِ الجَبَلِ، إِلاَّ أَشْبَارًا مَعْدُودَةً لَكِنَّهُ فِي اليَوْمِ الثَانِي عَبَرَ النَّهْرَ، وَاكْتَشَفَ المَدِينَةَ المُجَاوِرَةَ وَرَأَى الأَطْفَالَ فِي الأَزِقَّةِ يَلْعَبُونَ، وَالنَوَارِسَ فِي البَحْرِ تَضْرِبُ بِأَجْنِحَتِهَا الأَمْوَاجَ، وَالخُيُولَ فِي الحُقُولِ تَسْحَبُ العَرَبَاتِ المُلَوَّنَةَ.

قَالَ الخُفَّاشُ :

– وَلَكِنْ لِمَاذَا لاَ تُرِيدُ أُمِّي الخُرُوجَ نَهَارًا... لِمَاذَا ؟

عَادَ الخُفَّاشُ إِلَى مَغَارَةِ الجَبَلِ وَقَدْ عَقَدَ العَزْمَ عَلَى زِيَارَةِ الأَرْضِ، كُلِّ الأَرْضِ، وَمُشَاهَدَةِ مَمَالِكِهَا البَعِيدَةِ، وَجُزُرِهَا القَصِيَّةِ.

* * *

حِينَ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ فَتَحَ الخُفَّاشُ عَيْنَيْهِ فَرَأَى أُمَّهُ نَائِمَةً قُرْبَهُ، فَطَبَعَ عَلَى جَبِينِهَا قُبْلَةً وَهَمَسَ :

– عَفْوَكِ يَا أُمَّاهُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ الأَرْضَ، لَكِنْ ثِقِي أَنَّ غَيْبَتِي لَنْ تَطُولَ.

خَـرَجَ الخُفَّـاشُ الصَّغِيرُ مِن مَغَارَةِ الجَبَـلِ وانْسَـابَ فِي الفَضَـــاءِ :

– مَا أَجْمَـلَ الأَرْضَ : حُقُولٌ مُنْبَسِطَـةٌ، وَيَنَابِيعُ دَافِقَةٌ وَفَرَاشَاتٌ مُلَوَّنَـةٌ... سَأَبْقَى أُحَوِّمُ فَوْقَ هَذَا الكَوْكَبِ أَمْلأُ عَيْنِي بِجَمَالِهِ الأَخَّاذِ.

كَانَ الخُفَّـاشُ يَطِيرُ مُبْتَهِجًـا حِينَ أَبْصَرَ فِي الأُفُقِ البَعِيدِ مَدِينَةً كَبِيرَةً :

– سَأَذْهَبُ إِلَى هَذِهِ المَدِينَةِ، وَسَأَجِدُ فِيهَا أَطْفَالاً كَثِيرِينَ، سَأَحُطُّ فَوْقَ أَكُفِّهِمْ... وَأَصِفُ لَهُمْ الزُّهُورَ الَّتِي رَأَيْتُ، وَالفَرَاشَاتِ الَّتِي شَاهَدْتُ.

طَوَى الخُفَّاشُ جَنَاحَيْهِ ثُمَّ فَتَحَهُمَا، وَطَارَ حَتَّى وَصَلَ المَدِينَةَ... حَلَّقَ حَوْلَهَا ثُمَّ حَلَّقَ :

– إِنَّ هَذِهِ المَدِينَةَ مُقْفِرَةٌ، لاَ سُكَّانَ فِيهَا وَلاَ أَطْفَالَ.

أَمْعَنَ النَظَرَ فَرَأَى مَنَازِلَ مُحْتَرِقَةً، وَدَكَاكِينَ خَرِبَةً، وَمَدَارِسَ مَهْجُورَةً !!

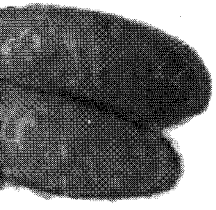

– مَا الَّذِي حَدَثَ فِي هَذِهِ المَدِينَةِ؟

أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ سِرَّ هَذِهِ المَدِينَةِ.

أَبْصَرَ فَـوْقَ شَجَـرَةٍ مُحَطَّمَـةٍ خُطَّافًـا هَرِمًـا، فَاقْتَـرَبَ مِنْهُ وَسَأَلَهُ عَلَى اسْتِحْيَـاءٍ :

– سَيِّـدِي الخُطَّـافَ.. أَيْنَ سُكَّـانُ هَـذِهِ المَدِينَـةِ؟

رَفَعَ الْخُطَّافُ رَأْسَـهُ وَقَـالَ :

– أَلَمْ يَبْلُغْكَ نَبَـأُ الْحَـرْبِ يَا وَلَدِي ؟

ارْتَجَفَ الخُفَّـاشُ وَسَـأَلَ ثَانِيَـةً :

– وَلَكِـنْ مَا هِيَ الْحَـرْبُ يَا أَبَـتِ ؟

ضَحِكَ الخُطَّافُ ضَحْكَةً حَزِينَةً وَقَالَ :

– الْحَـرْبُ هِـيَ أَنْ يَتَقَاتَـلَ الْبَشَـرُ، وَيَسْفُـكَ بَعْضُهُـمْ دِمَـاءَ الْبَعْـضِ...

أَحَـسَّ الْخُفَّـاشُ بِجَنَاحَيْـهِ يَتَجَمَّـدَانِ فَجْـأَةً :

– وَلَكِـنْ لِمَـاذَا يَتَقَاتَلُـونَ يَا سَيِّـدِي.

مَسَحَ الْخُطَّـافُ جَبِينَـهُ بِأَحَدِ جَنَاحَيْـهِ وَقَـالَ :

–لأَنَّهُـمْ مَا زَالُـوا أَغْبِيَـاءَ...

رَفَـعَ الْخُفَّـاشُ رَأْسَـهُ وَسَـأَلَ الْخُطَّـافَ :

– وَلَكِـنْ يَا أَبَـتِ أَيْـنَ أَجِـدُ أَطْفَـالَ هَـذِهِ المَدِينَـةِ ؟

أَشَـارَ الْخُطَّافُ بِجَنَاحِـهِ إِلَى جِهَـةِ الْشَّـرْقِ وَقَـالَ :

– هُنَـاكَ يَا وَلَـدِي تَجِـدُ خِيَـامَهُـمْ.

ضَرَبَ الْخُفَّاشُ الْهَوَاءَ بِجَنَاحَيْهِ وَطَارَ.

«صَدَقَ الْخُطَّافُ، هَاهُمْ يَتَجَمَّعُونَ أَمَامَ خِيَامِهِمْ : أَقْدَامُهُمْ حَافِيَةٌ وَأَثْوَابُهُمْ رَثَّةٌ».

– مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى تَشْرِيدِهِمْ.. مَنْ ؟»

كَانَ الْخُفَّاشُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ حِينَ سَمِعَ الأَطْفَالَ يَصِيحُونَ :

– خُفَّاشٌ يَطِيرُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ !!

اقْتَرَبَ الْخُفَّاشُ مِنْ أَحَدِهِمْ ثُمَّ حَطَّ عَلَى كَتِفِهِ، فَتَحَلَّقَ حَوْلَهُ أَطْفَالٌ كَثِيرُونَ وَأَخَذُوا يُدَاعِبُونَ جَنَاحَيْهِ...

قَالَ الطِّفْلُ الأَوَّلُ :

– يَا لِلْخُفَّاشِ الْجَمِيلِ.. لَقَدْ جَاءَ مِنَ جِهَةِ الْغَرْبِ، لاَ بُدَّ أَنَّهُ كَانَ يَسْكُنُ مَدِينَتَنَا...

قَالَ الثَّانِي :

– كَانَ فِي مَنْزِلِنَا عَدَدٌ مِنَ الْخَفَافِيشِ تَقْضِي النَّهَارَ مُعَلَّقَةً فِي السَّقْفِ.

قَالَ الثَّالِثُ :

– لَوْ كُنَّا خَفَافِيشَ مِثْلَهُ لَعُدْنَا إِلَى مَدِينَتِنَا !

قَـالَ الرَّابِـعُ :

– لَوْ رُمْنَـا العَـوْدَةَ لأَطْلَـقَ عَلَيْنَـا العَـدُوُّ النَّـارَ.

أَحَسَّ الخُفَّاشُ بِالدُمُوعِ تَمْلأُ عَيْنَيْهِ فَأَخْفَى رَأْسَهُ بَيْنَ جَنَاحَيْهِ

قَالَ أَحَـدُ الأَطْفَـالِ :

– لاَبُـدَّ أَنَّـهُ يُرِيـدُ العَـوْدَةَ إِلَى مَدِينَتِنَـا...

نَشَـرَ الخُفَّـاشُ جَنَاحَيْـهِ ثُمَّ ارْتَفَـعَ عَالِيًـا

صَـاحَ أَحَـدُ الأَطْفَـالِ :

– يَا أَيُّهَـا الخُفَّـاشُ أَقْـرِئْ مَدِينَتَنَـا السَـلاَمَ !!

«كَيْفَ يَتَحَمَّلُ الأَطْفَالُ الحَيَاةَ فِي هَذِهِ الخِيَامِ البَالِيَةِ، كَيْفَ يُقَاوِمُونَ لَيَالِي الشِّتَاءِ البَارِدَةِ...

لَوْ كُنْتُ أَقْدِرُ عَلَى احْتِضَانِهِمْ لَدَثَّرْتُهُمْ بِجَنَاحَيَّ».

ظَلَّ الخُفَّاشُ يَنْسَابُ بَيْنَ الغُيُومِ سَاعَاتٍ حَتَّى أَبْصَرَ فِي البَعِيدِ مَدِينَةً كَبِيرَةً.

قَالَ لاَبُدَّ أَنِّي وَاجِدٌ أَطْفَالاً سُعَدَاءَ فِي هَذِهِ المَدِينَةِ، وَحَانَتْ مِنْهُ الْتِفَاتَةٌ فَرَأَى فِي حَدِيقَةِ

المَدِينَةِ أَطْفَالاً يَلْعَبُونَ «آهِ مَا أَجْمَلَ هَؤُلاَءِ الأَطْفَالَ، وَمَا أَجْمَلَ ضَحِكَاتِهِمْ».

انْحَدَرَ الخُفَّاشُ شَيْئًا فَشَيْئًا وَحَطَّ فَوْقَ شَجَرَةٍ وَظَلَّ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَهُمْ يَلْعَبُونَ... فَجْأَةً

أَبْصَرَ طِفْلاً يَنْسَحِبُ مِنْ حَلَقَةِ الأَطْفَالِ.. وَيَنْتَحِي رُكْنًا قَصِيًّا وَيَنْخَرِطُ فِي بُكَاءٍ طَوِيلٍ..

– مَا الَّذِي أَبْكَى هَذَا الطِّفْلَ ؟

الْتَحَقَ بِهِ الأَطْفَالُ

هَمَسَ الأَوَّلُ :

– لَقَدْ تَذَكَّرَ أَبَاهُ... المِسْكِينُ... أَبُوهُ ذَهَبَ فِي رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ...

هَمَسَ الثَّانِي :

– المِسْكِينُ لاَ يَعْلَمُ أَنَّ أَبَاهُ سَجِينٌ مُنْذُ سِنِينَ عَدِيدَةٍ.

سَأَلَ الثَّالِثُ هَامِسًا :

– وَلَكِنْ لِمَاذَا سُجِنَ ؟

هَمَسَ الرَّابِعُ :

– لأَنَّهُ لَمْ يَنْحَنِ أَمَامَ مَوْكِبِ المَلِكِ.

تَسَاءَلَ الْخَفَّاشُ :

– كَيْفَ لِهَذَا الطِّفْلِ أَنْ يَتَحَمَّلَ غِيَابَ أَبِيهِ ؟ مَنْ بَعْدَهُ يُمَشِّطُ شَعْرَهُ ؟ مَنْ يَرْوِي لَهُ قَبْلَ النَّوْمِ حِكَايَةً؟

اِرْتَفَعَ الخُفَّاشُ عَالِيًا وَقَالَ :

– لَنْ أُوَاصِلَ رِحْلَتِي... لَقَدْ صَدَقَتْ أُمِّي، لَنْ أَخْرُجَ بَعْدَ اليَوْمِ إِلَى هَذَا العَالَمِ إِلاَّ لَيْلاً حَتَّى لاَ أَرَى أَطْفَالاً أَشْقِيَاءَ ...

* * *

قَالَتْ أُمُّ الخُفَّاشِ لِإِبْنِهَا :

– لاَ تَحْزَنْ يَا وَلَدِي... فَقَدْ قَالَتْ لِي العَرَّافَةُ يَوْمًا أَنَّ هَؤُلاَءِ الأَطْفَالَ هُمْ الَّذِينَ سَيَجْعَلُونَ العَالَمَ جَمِيلاً.

ضَحِكَ الخُفَّاشُ وَأَلْقَى بِجِسْمِهِ فِي حُضْنِ أُمِّهِ وَنَامَ.